البيان القرآني وسلطة البلاغة القديمة (قراءة في ضوء البلاغات الخاصّة)

Quranic rhetoric and the power of ancient rhetoric

عمور عبد القادر

جامعة عبد الحميد بن باديس.مستغانم. ammour27277@gmail.com

إشراف د. دحماني نور الدين

جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم.dahmanour@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/11/02 تاريخ القبول: 2020/05/11 تاريخ النشر: 2020/08/13

ملخص: الشّعر عند العرب سيِّد فنون القول بلا منازع، فهيمنته على الأدب العربي ظاهرة. وعلى منواله شُيِّدت البلاغة الشعرية القديمة كمنهج لقراءة جميع النصوص الأدبية العربية حتى وصلت إلى القرآن الكريم، وقد ظهر تفلُّته عن القواعد الشعرية العربية؛ حيث تظهر المآزق التي تواجه العلماء عند مقاربته بقواعد البلاغة العربية القديمة.

فكيف استساغ علماء البلاغة القدامى قراءة القرآن ببلاغة شعريّة محضة لا يرقى منوالها الشعري الذي أصِّلت فيه إلى مرتبة القرآن الكريم؟ ومن هنا رأينا معالجة هذه الإشكالية في ضوء نظرية البلاغات الخاصّة التي تفرد كلّ خطاب ببلاغة تخصّه كبلاغة الرواية وبلاغة السيرة والقصة... إلخ

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الاستعارة، الشعرية، القرآن الكريم، مناهج القراءة.

Abstract

The poetry of the Arabs is the master of Arabic literature without question. Thus, the ancient poetic rhetoric was constructed as a reading method for all Arabic literary texts until it reached the Holy Quran. It revealed its ignorance of the Arabic poetic rules. The dilemmas facing the scholars are revealed in its approach to the rules of ancient Arabic rhetoric.

So, how old scholars of rhetoric are pleased to read the Holy Quran with pure poetic rhetoric that does not amount to the poetic way in which it was established to the rank of the Holy Quran? Hence, we have seen this problem to be addressed in the light of the theory of private communications, which singled out each rhetoric with its eloquence, the eloquence of the narrative and the story of the literary genres that separate the peculiarities of each literary race from aesthetic and stylistic point of view

key words: : Holy Quran, poetry, metaphor, Rhetoric, reading methods.

المؤلف المرسل: عمور عبدالقادر. Ammour27277@gmail.com

المنارة للاستشارات

ww

1. مقدمة :

القرآن العظيم هو كتاب ربِّ العالمين الذي أعجز به –سبحانه – فصحاء العرب الأوّلين والتابعين. ومنذ بداية جمع اللُّغة العربية وتدوين علومها بدأت تتراكم الملاحظات في اختلاف لغة العرب عن لغة القرآن الكريم في أمور شتَّ، لعلّ أبرزها –وهو ما يهُمُّنا في هذا المقام – هو البوْن الشاسع بين بلاغة القرآن وبلاغة الشعر العربي. وهذا الأمر كان كفيلا ببعث البحوث البلاغية في القرآن الكريم أو ما عرف بقضية الإعجاز البلاغي، حتى انشطر علماء البلاغة العربية إلى مدارس منها مدرسة الإعجازيين.[1]

يقول الجاحظ منبِّهاً على خصوصية اللّغة القرآنية: "... خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثور غير مقفّى على مخارج الأشعار والأسجاع، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أعظم الحجج...». يعدُّ الجاحظ علما رائداً في علم البلاغة العربية، وما يستشفُّ من كلامه هذا أنَّه كان على وعي بخصوصية القرآن العظيم وتميّزه من باقي الكلام العربي شعراً كان أو نثراً، سواء أكان ذلك في نظمه أو تأليفه؟

والإشكال القائم هو: كيف استساغ البلاغيون العرب قراءة القرآن الكريم ببلاغة شعرية استنبطت فنونها من كلام لا يماثل كلام الله –عز وجل – مع درايتهم بالفرق الكائن بينهما؟ وهل وفّقت البلاغة العربية الشّعرية كإجراء في التفسير البياني للقرآن الكريم؟

ولمعالجة هذه الإشكالية سنبحث عن مكانة الشعر عند العرب باستقراء هذه الظّاهرة مع عرض وتحليل الأسباب الرئيسة التي منحت الشعر هذه المكانة العليا بين الشعراء والنقاد والمفسِّرين حتى صار حَكَماً على بقية النصوص العر بية. وهل وُفِّق هذا المنهج التفسيري البياني في قراءة القرآن الكريم قراءة تتوافق مع المقصود الرباني بالآيات الكريمات التي حوت تصويراً بيانيا خاصاً.

المنارة للاستشارات

2. الشعر معيار البلاغة عند العرب:

لا يماري أحدٌ من البلاغيين العرب أنّ القرآن الكريم هو أرقى وأعلى درجة من حيث الفصاحة والبيان والبلاغة على الإطلاق، وقد تحدىَّ المولى – عزّ وجلّ – العرب الأُوّل على أن يأتوا بآية تماثل آيات الكتاب العزيز. وقد انتبه لهذه الميزة الإعجازية للذكر الحكيم اللّغويون والبلاغيون على السواء، إلاّ " أن هذا التفكير البلاغي قد وجد في الشعر ضالّته المنشودة حيث اعتبر هذا الجنس من الكلام شاهداً على أساليب العرب "[2]. فبدلا من تقديم القرآن والاحتكام إليه في دراسة الكلام العربي، احتكموا إلى كلام العرب الجاهلين ومن تبعهم من القرون التي اجتمعوا على فصاحتهم. ومن هنا بدأ البلاغيون القدامى يستقْرون الشعر العربي ويستنبطون منه فنون القول وجمال الأسلوب واتساعه. واكتسح جنس الشعر الميدان على حساب باقي الأجناس الأدبية التي أهملها الدَّرس البلاغي القديم، ومع أنّ القرآن الكريم باعتباره كلاماً إلهياً معجزاً تفوَّق على جميع كلام البشر العادي والفنّي، إلاّ أنّ العرب تناسوا خصوصية القرآن الكريم ومثاليته، وحاولوا استنباط إعجازه بمعايير البلاغة الشعرية.

يقول عبد القاهر عن الشعر: "...وأردته لأعرف به مكان بلاغة، وأجعله مثالا في براعة، أو أحتجَّ به في تفسير كتاب وسنة، وأنظر إلى نظمه ونظم القرآن، فأرى موضع الإعجاز..."[3]. والأصل هنا أن تكون البلاغة القرآنية أصلاً ومثالا يُحتذى، ومنه تُؤَصَّلُ فنون البلاغة العالية، وعلى منواله تقاس كفاءة البلاغات الأخرى ما أمكن ذلك. فكيف يمكن تفسير البلاغة القرآنية ببلاغة أقلّ منها درجة، وأعجز منها فصاحة باتفاق العرب قاطبة.

يقول الجرجاني في مقدمة الدلائل مدافعًا عن الشعر : "...كنّا نعلم أنّ الجهة التي قامت منها الحجّة بالقرآن وظهرت وبانت وبهرت، هي أن كان على حدِّ الفصاحة تقصُر عنه قوى البشر...وكان محالاً أن يعرفَ كونَه كذلك إلاَّ من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب..."[4]؛ الشعر ديوان العرب، وما التبس من لغة القرآن فالتمسوه في لغة الشعر، هذه المقولات المأثورة عن العرب كان لها الأثر البالغ في ما بعد مع ازدهار الدّرس اللّغوي والبلاغي، حتى " ساوت النظرية

المنارة للاستشارات

البلاغية القديمة بين الشعر وبين أنماط أخرى من الخطاب؛ فما يجري عليه من الخصائص البلاغية يجري عليها. الشعر في ظلّ هذا التصوُّر ديوان العرب وامتداد للخطبة والحكمة والمثل السائر وغيرها من أجناس القول."[5] وأودّ القول أنّ النظرية البلاغية العربية سيَّدتْ الشعر وجعلته المنوال المتبع، وليس ذاك غاية في التنقيص من قيمة القرآن الكريم أو الأجناس الأدبية الأخرى، وإنّما هو لا وعي جماعيٌ عربيٌ تواضع –من دون سابق اتّفاق–عليه النقاد والبلاغيون في تتويج الشّعر بالسيادة على فنون القول. وصار " التّراث البلاغي والنقدي مدين في صياغة مصطلحاته ومبادئه لجنس أدبي عام هو الشعر"[6]

أمّا أبو عبيدة فقد نهج في مجازه منهجاً قائماً على شروح المعجم ومعانيه، ووجوه الإعراب في القرآن الكريم اعتماداً على أساليب الشعر العربي[7]؛ وهي القراءة بالمماثلة[8] كما رآها الباحث أحمد يوسف. وهي في رأيه مرحلة انتقال الفكر العربي من ثقافة الجاهلية إلى ثقافة جديدة يحكمها الإسلام، " لهذا كانت سلطة النص الغائب (الشعر العربي) تمهِّد لسلطة النص الحاضر (القرآن الكريم)، وذلك عن طريق القراءة بالمماثلة لاجتناب الصدمة وصعوبة التجاوز..."[9]. لكن الظّاهر أنّ طريقة أبي عبيدة في قراءته للقرآن الكريم ظلّت سنَّة متّبعة في القراءات البلاغية للقرآن بعده من حيث سلطةُ النصِّ الغائب (الشّعر العربي) وحضور البلاغة الشّعرية في مناسبات الحديث عن الإعجاز البياني في القرآن الكريم، مع بعض التعمّق في الدراسات إلاّ أنَّ المنهج هو نفسه؛ منهج النصِّ الأصل والنص الفرع أو الغائب والحاضر: (الشعر والقرآن الكريم).

يصنِّف الرماني في رسالته " النكت في إعجاز القرآن" البلاغة على درجات ثلاث، عليا ووسطى ودنيا " فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز؛ وهو بلاغة القرآن "[10]. فهو (الرُّماني) يقرُّ بتفوق بلاغة القرآن على بلاغة العرب، إلاّ أنّه لم يفرِّق بين آليات البلاغة الشعرية عند قراءته للقرآن. فتجده في باب الاستعارة يستعمل لفظ الحقيقة مقابلا للفظ الاستعارة كقوله في تفسير الآية الكريمة﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾**الحجر**: ﴿٩٤﴾. فاصدعْ بما تؤمر «: " حقيقته بلِّغْ ما تؤمر به "[11]. ويقصد أنّ لفظ " اصدع" هنا مستعارٌ لغاية بلاغية. فماذا كان يقصد بكلامه (استعير لغاية البلاغة)؟ ولو قال على أنَّه مرادفاً لكان أقرب إلى المعنى المقصود.

المنارة للاستشارات

والله أعلم. وفي تفسيره لقوله عز وجل:﴿ جَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾الفجر: ٢٢. فجعل مجيء دلائل الآيات مجيئاً له على المبالغة في الكلام "[12]. أبدل الرمّاني مجيء الله –عزّ وجلّ– في الآية بمجيء آياته، وإنّما جاءت الآية هكذا لغاية بلاغية هي المبالغة، وهذا لا مسوِّغ له. من هنا يظهر مأزق البلاغة الشعرية في تأويل القرآن الكريم. فهل ربّنا –سبحانه– محتاج إلى المبالغة في كلامه ليوصل المعنى إلى عباده، خصوصاً إذا علمنا أن المبالغ تنافي حقيقة الخبر وتضيف إليه ما ليس منه. وهل ضاقت عليه الحقيقة حتى لجأ إلى الاستعارة. خاصة تلك الاستعارة التي اصطلح عليها المتأخرون وهي فرع عن المجاز الذي يتعارض مع الحقيقة، والحق سبحانه لا يقول إلاّ حقاً.

" وثمّة أمر آخر أشدُّ خطورة هو أن القرآن ليس نتاجاً عادياً، فيخضع لقوانا وأبحاثنا وإمكانياتنا..."[13]؛ فالإمكانيات والآليات البلاغية التي بين أيدينا هي نتاج تأمُّلات علمائنا – رحمهم الله –في كلام الشعراء خاصّة، وكلام العرب عامّة. وإذ لا ننكر نجاعتها مع بعض الفنون البيانية في القرآن إلاّ أنّها ليست كافية ألبتّة لتفسير جميع الصُّور البلاغية في القرآن الكريم لما يعتريها من نقص البشر. فصرامة أي نظرية إنّما مردّها إلى ثبات الموضوع وصرامة التجريب والتطبيق. بيْد أنّ الشِّعر ظاهرة إنسانية تخضع لعوامل شتّى؛ النفسية منها والوجدانية والاجتماعية حيث لا يمكن فصل موضوع الدِّراسة (أي الشِّعر) عن هذه الظروف اللصيقة به. ومن هذا العُسر في فصل موضوع التجربة عن الشوائب والزوائد التي لحقته؛ تكون النتائج متذبذبة ونسبية الدقّة. والنتائج التي بين يدي البلاغي اليوم هي علوم البلاغة الشعرية. ولّما كانت العلوم هذه نسبية في ذاتها ، وجب على الباحث اليوم في البلاغة القرآنية أن يعيَّ هذا الفرق بين البلاغتين (بلاغة القرآن وبلاغة الشعر)، أو البلاغات المتعدّدة بتعدّد أجناس خطاباتها واختلافها.

والتذبذب بين فنون البلاغة العربية وقواعدها ظاهرٌ جليٌّ بين العلماء والمدارس ويتجلى ذلك في المصطلحات والمفاهيم؛ ونذكر في هذا المقام مفهوم "المذهب الكلامي" عند العلماء واختلافهم في تعريفه، فابن القيّم الجوزية يصطلح عليه بالاحتجاج النظري؛ وهو أن يذكر المتكلم معنىً يستدلُّ عليه بضربٍ من المعقول[14]. أمّا الزركشي فقد اصطلح عليه بإلجام الخصم؛ وهو أن يحتجَّ للمعنى المقصود بالحجج العقلية[15]. ويوافق ابن أبي الإصبع العدواني على المصطلح الذي وضعه ابن المعتز في بديعه وهو " المذهب الكلامي "[16]. وهذا الاختلاف في المصطلحات

المنارة للاستشارات

والمفاهيم مطّرد في كتب البلاغة القديمة، وإنّما أتينا على ذكر هذا الاختلاف الاصطلاحي لنبيِّن هشاشة النظريات البشرية خاصَّة إذا كانت في علوم غير تجريبية، فالأدب يخضع أوّلاً للذوق الفنّي الذي يختلف من شخص لآخر ومن بيئة لأخرى ومن زمن لآخر أيضاً.

3. بلاغة النص من جنسه:

إذا كانت نظرية الأجناس الأدبية قد مكّنت للناقد آليات لمقاربة الخطابات حسب أجناسها المختلفة "أي أنَّ معيار الجنس الأدبي يسمح للناقد بقراءة النص قراءة صحيحة؛ فليس له أن يطالبه بما ليس من خصائصه المكونة لماهيته "[17]؛ ومعنى هذا أنّ القراءة البلاغية للشعر لم يعد بإمكانها فرض آلياتها وتعميمها على جميع أجناس الكلام أدبياً كان أو غير ذلك؛ " وهو انتقال أملاه تنوع الأجناس التي لم يعد يملك الشعر فيها إلاّ الجزء على حين كان يمتلك الكلَّ "[18]. فالبلاغة أنواع متباينة بتنوع النصّوص، فليست جماليات القصيدة العربية نفسها في الخطبة والرسالة والقصة والنادرة... ناهيك عن القرآن الكريم ذي البلاغة الأعلى. ولسنا نزعم أن القرآن الكريم جنس أدبي، إنّما هو نص أعلى شأناً وأكمل بلاغةً.

فالباحث في بلاغة القرآن الكريم عليه الانتباه إلى خصوصية الخطاب الإلهي الذي بين يديه حتى لا يُحكِّم قنوات البلاغة الشعرية للوصول إلى جماليات الخطاب القرآني، «فكلُّ نصٍّ يفتح أمام قارئه أفقاً جمالياً يصبح معياراً موجها للقراءة"، مع تداخل بعض الأجناس البلاغية في النص الواحد لكن يبقى فيه نمط بلاغي غالب مناسب لجنسه. ونحن لا ننفي جدوى البلاغة العربية بكليَّتها وإنَّما ننبِّه إلى ما يمكن أن يصادف القارئ من حرج مع القرآن الكريم لخصوصية مصدره وخصوصية لغته وبلاغته، لذا عليه أن يجعل علوم البلاغة لينة طيِّعة في مقاربة القرآن الكريم حتى لا يصطدم بالمحظور ويقع في شَرَك الاختلافات والاتهامات التي واجهت علماءنا الأوائل مثل ما حصل بين منكري ومثبتي المجاز في القرآن الكريم. وما ذاك إلاّ نتيجة قراءة آيات قرآنية بالمجاز البلاغي الشعري، وشتَّان بين قراءة القرآن الكريم وقراءة الشعر العربي. والمتأمّل لهذا الكلام عن بلاغة القرآن الكريم الخاصّة يتذكر أيضا ما حصل في الدَّرس النحوي مع نحو القرآن الذي أحرج

المنارة للاستشارات

العلماء، فكلّما خضع كلام العرب للقواعد التي استنبطوها وأسّسوا لها إلّا ووجدوا ما يناقضها في أساليب القرآن الكريم.

فالقراءة البلاغية في القرآن الكريم أو في بلاغة الأجناس الأدبية البشرية تجعل البلاغي مطالباً " بأن يجعل مفهوم الجنس حاضراً في ذهنه، عاملاً في نتائج بحثه ومكيِّفاً للأساليب الملحوظة ومحدداً لوظائفها ومتكيفاً بها"[19]، فالخطاب أصلٌ والقراءة النقدية تبعٌ له في استنباط المعاني المحمولة في الصوّر البلاغية. لذا علينا مواجهة " هذه الأجناس من خلال البلاغة التجريبية لا من خلال البلاغة المثالية (الشعرية)؛ بمعنى علينا أن نكتشف بلاغتها من داخلها، لا أن نخلع عليها بالضرورة أنماطاً بلاغية معدّة «؛ فالمتن المدروس هو الذّي يوجه آليات القراءة، خاصَّة مع المناهج النقدية الحديثة وتعدّد الأجناس الأدبية حيث ظهر الفرق بين البلاغات المختلفة التي عجزت البلاغة الشعرية أن تفرض عليها هيمنتها المعهودة. وتقصد نظرية البلاغات الخاصّة إلى بناء نسق بلاغي على حسب جنس النصّ الأدبي، فلا يمكن أن تقارب الرواية بلاغيا كما تقرأ نصّاً شعريا قديما، فالإجراء البلاغي يختلف إلى حدٍّ بعيد بُعْد ما بين الشّعر والرّواية من فوارق أدبية وفنية لا تخفى على الناقد المعاصر، وقد تضيق هذه الفجوة إذا ما تجانس النصين مثل الرواية والسيرة مثلاً مع بقاء نوعٍ من الخصوصية لكلٍّ منهما.

ينتقد محمد مشبال الباحث محمد العمري في خوضه في بلاغة السيرة الذّاتية ومعالجته لهذا الجنس الأدبي بمعطيات البلاغة الشعرية، يقول " كيف واجه محمد العمري معضلة التخييل في جنسين أدبيين (السيرة الذاتية وفنُّ الخبر) بعيدين عن الشعر الغنائي؟ كيف أمكنه أن يحتفظ بالبلاغة لوصف خطاب لم يشكّل على العموم موضوع البلاغة بالمعنى الدقيق قديماً وحديثاً "[20].

ما يهمنا من هذا الكلام هو الاعتراض على قراءة جنس أدبي مختلف عن الشعر بنفس الآليات البلاغية الشعرية (التخييلية)، ولعلَّ الباحث محمد مشبال يرى مسافة فاصلة بين بلاغة الأجناس المختلفة حسب تصنيفات نظرية الأجناس الأدبية، ومن هذا المبدأ في التمايز يُصِرُّ على ضرورة وجود بلاغات خاصّة بكلِّ جنس أدبي. وعليه فلابدّ للقارئ من آليات خاصة لكلِّ نوع أو جنس أدبي، وللقرآن في هذا المثل الأعلى؛ وقد استعصى على العلماء تصنيفه بين النثر والشعر.

المنارة للاستشارات

ومن هذا المبدأ أيضا نبني تصوُّرنا في لزوم قيام بلاغة جديدة تصف القرآن الكريم في أمثل قراءة بلاغية، بعيداً عن شعرية التخييل التي تصطدم كثيراً وعقائد المسلمين. ومن باب أولى أن نحافظ على خصوصية القرآن الكريم قبل حفاظنا على خصوصية الأجناس الأدبية ضدّ الهيمنة الشعرية.

ثمّ يواصل محمد مشبال نقده لعمل محمد العمري في كتابه: " البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول"[21] قائلا " فالباحث لا يكفُّ عن جرِّ الأجناس الأدبية إلى دائرة الشعر كلّما واجه معضلة التعامل مع معضلتها المخصوصة"[22]. وهذا الأمر نفسه حدث مع البلاغيين القدامى لمّا حاولوا البحث في الإعجاز البياني للقرآن الكريم؛ حيث جعلوا من بلاغة الشعر حكماً على بلاغة القرآن ومنوالاً تنسج عليه بلاغته أو بلاغة أي جنس آخر غير الشعر.

3. عجز بعض الفنون البلاغية مع الآيات القرآنية:

سنحاول تحت هذه الفكرة عرض بعض الفنون البلاغية الشعرية التي تعسّر ضبطها وقلّت استجابتها عند إجرائها على نماذج من التصوير القرآني.

1.3 المجاز:

يقول القاضي عبد الجبار " إنّ القرآن نزل بلغة العرب وفيه المجاز والحقيقة، كما قال عز من قائل: و{**كَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ** {الأنبياء: ١١ وقال تعالى: {**وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا**}الإسراء: ٥٨.إنّ ذلك ذكر للقرية والمراد بها أهلها من المكلفين "[23]. المجاز في هذه الآيات عند القاضي عبد الجبار هو حذف لفظة (أهل) المضافة إلى القرية وهذا التأويل مفهوم من السياق، فالعذاب الإلهي موجه إلى البشر خصوصا من سكان القرية، وليس إلى الجمادات فيها، مع أنّه يدمِّر كلّ شيء بأمر الله. وهذا الأسلوب معروف في كلام العرب. وهذا النوع من مجاز الحذف لا خلاف فيه، فالعرب تحذف الكلام إذا أُمِن اللَّبسُ في المعنى. وهو في العربية كثير وجائز ومقبول.

المنارة للاستشارات

إلاّ أنّ فنّ المجاز قد تعثّر في كثير من تخريجاته للآيات القرآنية الخاصّة بأفعال الله وصفاته. فصار التأويل بالمجاز –الذي يفترض فيه أن يخدم المعنى ويبين الدلالة – وسيلة في قلب الدِّلالة إلى عكسها وردِّ المقصود من الآيات القرآنية، وبالتالي انغلاق الخطاب بدل شرحه وتفسيره.

يقول الزّمخشري في أساس البلاغة: " ومن المجاز؛ خَلَقَ الله الخلق أوجده على تقدير أوجبته الحكمة، وهو رب الخليقة والخلائق "[24]. والمجاز الذي استقرّ في البلاغة العربية بعد الجاحظ هو المجاز المقابل للحقيقة فهل خلقُ الله –عزَّ وجلَّ –الخليقة ليس على سبيل الحقيقة؟ وهذا أمر لا يستقيم شرعًا ولا عقلاً. يقول ابن منظور: " والخَلْقُ فِي كَلَامِ العرب ابتِداع الشَّيْءِ عَلَى مِثال لَمْ يُسبق إِليه: وَكُلُّ شَيْءٍ خلَقه اللَّهُ فَهُوَ مُبْتَدِئه عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سُبق إِليه "[25]. ويبقى فعل الخلق خاصٌّ بالله – عزَّ وجلّ–وحده على الحقيقة، وإن نُسب إلى البشر كان مجازاً.

ويقول الزمخشري أيضا " ومن المجاز: خَنَسَ الكوكب: رجع. في قوله: {بِالْخُنَّسِ} التكوير ١٥"[26]. والاستشهاد بالآية الكريمة بِرَدّها عن الحقيقة إلى المجاز مردود، لأنّ الله الذي خلق الكوكب وخلق له هذا الفعل. وكأنّي بالزمخشري قد استبعد أو استغرب أن يقوم الكوكب بالفعل الذي نسبه الله إليه، ومثال ذلك كثير في القرآن والحديث؛ " وما في نطق جهنم ونطق السماء والأرض من العجب؟ والله تبارك وتعالى ينطق الجلود، والأيدي، والأرجل، ويسخّر الجبال والطير بالتّسبيح"[27]؛ حيث يقول عز وجلّ: {إِنَّا} ص: ١٨.

كما يقوم البشر بالفعل على الحقيقة والله خلقهم وخلق أفعالهم؛ لقوله عز وجلّ **{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}** الصافات: ٩٦. ولا يسعُ المفسِّرَ أن يردَّ كلّ هذه الآيات إلى المجاز. والمجاز في البلاغة له أنواع ولكلِّ نوع علاقاته وقرائن تدلُّ عليه، إلاّ أنّ الزمخشري لم يستدلَّ لكلامه بهذه القواعد البلاغية المهمَّة التي تسوِّغ لرؤيته التأويلية.

لعلّ المجاز في البلاغة الشعرية العربية من الفنون التخييلية التي تقوم على فلسفتها أغلب فنون القول شعرا ونثراً. والبلاغيون العرب أبلوا البلاء الجميل في استكشاف هذه الظّاهرة في الشعر العربي والتنظير لها. ووقعت المفارقة عندما حاولوا قراءة القرآن بهذه القواعد البلاغية التي استُنبطت وأُسِّست أولاً في الشعر، لكنّها لم تسعفهم في تفسير الآيات الكريمات على غرار ما رأينا مع فنِّ المجاز والأمثلة فيه كثيرة تشهد على هذا التعثُّر البلاغي الشعري.

المنارة للاستشارات

2.3 الاستعارة

يقول صاحب الطراز في الآيات التي ذكرت فيها صفة اليد : " الذي عوّل عليه علماء البلاغة والمحققون من أهل البيان هو أنَّها (اليد) جارية على نعت التخييل فهي في الحقيقة دالة على ما وضعت له في الأصل، لكن معناها غير متحقق، وإنّما هو أمر خيالى، فاليد مثلاً دالة على الجارحة، والعين كذلك لكن تحقق اليد والعين فى حق الله تعالى غير معقول، ولكنّه جارٍ على جهة التخيُّل، كمن يظن شبحا من بعيد أنَّه رجل فإذا هو حجر، ومن يتخيل سواداً أنه حيوان فإذا هو شجر، إلى غير ذلك من الخيالات، فما هذا حاله من التأويلات أسهل على الفؤاد وأجرى وأدخل فى البلاغة من التأويلات البعيدة التى لا يعضدها عقل، ولا يشهد بصحّتها نقل"[28]. وهذا من أغرب التأويلات البلاغية في صفات الله – عزّ وجلّ – . كيف تكون اللّفظة القرآنية دالّة على ما وضعت له في الأصل؟ إذا ظنَّ الجارحة! فليس له ذلك لانعدام الدليل الصّريح. وأي أصل يقصد؟ أصل وضع العربية فهذا كذلك ليس عليه دليل! وكيف يكون معناها غير متحقق؟ ونحن أصلاً لا نعرف معنى صفة اليد في حقِّه –سبحانه – أي لا ندرك كيفيتها، والله نسبها لنفسه، كما نسب لنفسه صفات كثيرة لا نعلم كيفيتها. قال تعالى: {**فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**} الشورى: ١١

فالآية الكريمة تنسب وتثبت لله السّمع والبصر وتنفي عنه المثيل والشبيه، وهذه قاعدة متّبعة عند علماء العقيدة في تأويل صفات الله ـــــ عز وجل ـــــــــ. وقسْ على ذلك جميع آيات الصفات الإلهية. ونحن البشر إذا ما صادفنا آيات كريمات تذكر صفات الله – عز وجل – فما علينا سوى التصديق مع نفي الشبيه والمثيل، أمّا نفيها على أنّها من التخييل فذلك مأزق عقدي أيضا قد وقعت فيه البلاغة الشعرية من غير ما دليل صريح – والله أعلم–.

ويقارن العُلوي بين بلاغة البشر وبلاغة القرآن استدلالاً لتخريج الآيات على المجاز فيقول " من الخيالية قولهم: «فلان أنشبت المنية فيه مخالبها» كان تخييلا للاستعارة، لأنّه لما شبّه المنية

المنارة للاستشارات

بالسبع في عدوانها وتضريّتها على الإنسان، جعل لها مخالب، ليزداد أمر التخييل ويكثر، ومن الاستعارة التخييلية، الآيات الدالّة على التشبيه، قوله تعالى : {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}المائدة: ٦٤، وقوله :{قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ} ص: ٧٥ ، وقوله عز وجلّ : و{وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} الرحمن: ٢٧"[29]

وهذا الاستدلال لا يستقيم لأن الاستعارة في الأصل تشبيه وهو ظاهر في قولهم المنية أنشبت. فشبهوا المنية بالوحوش المفترسة. أمّا التشبيه في استعارة آية المائدة ليس مقبولاً أو مستساغاً، (لو قلنا مثلا : إنفاق الله كاليدين المبسوطتين) لم يقبل عربي هذه الصّورة الركيكة. ولو قال هي كناية عن العطاء والجود لكان أهون. والكناية:" لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ "[30]، فقد يكون التخريج بالكناية أسلم من الجانب العقدي أيضاً (والله أعلم). ونفس الأمر بالنسبة لبقية الآيات فلا يمكن استخراج التشبيه فيها لأنّها ليست استعارات، فلا تجد المستعار له والمستعار منه ولا القرينة، إلى غير ذلك من أركان الاستعارة المعلومة.

ومن التشبيهات القرآنية ما عرف العلم حقيقته في هذا العصر مثل قوله تعالى { فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ }الأنعام: ١٢٥. فقد أثبت العلم الآن أن كمية الأوكسجين تتضاءل كلّما ارتفع الإنسان إلى الأعلى في الفضاء، وبالتالي تصبح عملية التنفس صعبة للغاية، وسمّى الله هذه الصعوبة بحرج الصدر. والله أعلم. فما لم يدركه الأوائل بعقولهم بحثوا له عن تأويلات بلاغية تخييلية حتى يبتعدوا عن إثبات الصِّفات وهو ما تأباه العقيدة الإسلامية.

3.3 المشاكلة:

وهي " ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديراً "[31]. وهذا الفنُّ البديعي اختلف فيه العلماء أمجاز هو أم حقيقة؟[32] والظّاهر أنّه من المجاز لأنّه وضعٌ للّفظ في غير معناه.

المنارة للاستشارات

وهذا الفنُّ وجد بيئته الحاضنة لدى البلاغيين الذّين فسّروا الكثير من الآيات القرآنية بهذا الفنِّ. لكنَّ المشاكلة من شاكل اللّفظُ اللفظَ الآخر في شكله دون معناه، وهنا تقع المفارقة في تأويل آي القرآن بفنِّ المشاكلة، هل يأتي اللّفظ القرآني لغاية مشاكلة لفظ سابق له من غير أن يؤدّي دوراً دلاليا في التركيب. وهذا لا يقول به عاقل قرأ وفهم اللُّغة العربيّة والقرآن الكريم. إذ أنَ اللّفظة القرآنيّة لها دور دلالي وبلاغي دقيق لا يمكن حتى تعويضها بما يرادفها. فكيف يمكن تخريجها على أنّها من باب المشاكلة فقط وإهمال معناها. كما قالوا في قوله سبحانه: **{ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}** الأنفال: ٣٠. **وفي قوله – سبحانه – {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}** آل عمران: ٥٤

فقد استشهد بآية آل عمران السكاكي والعلوي والإيجي على أنّها من بديع المشاكلة وهو من المحسِّنات اللّفظية (المفتاح323/ الروض المريع 164/ الطراز 387). واستشهد بآية النمل العلوي وبآية الأنفال ابن البناء.

وقد قالوا في لفظة (المكر) المنسوبة إلى الله عز وجل أنّها قد جاءت على سبيل المشاكلة للفظة المكر التي قبلها، وهذا التوجيه يجعل الغاية من لفظة المكر في الآية تحسيناً بديعياً وزينة لفظية وليست لصفة أو فعل إلهي وحجّتهم أنّهم يتزّهون الخالق سبحانه من هذه الصِّفة، لأنّها لا تليق به سبحانه –على رأيهم– فنقول : لو أنّ عدواً أراد بنا كيْداً وبيّت لنا مكراً، فانتبهنا لمكره فأفسدنا عليه كيده وجعلنا دائرة السوْء عليه. أنوصف حينئذٍ بوصفٍ مشين، أم بالذّكاء والفطنة وحسن التدبير؟ ولله المثل الأعلى سبحانه وتعالى. فهو سبحانه مطّلع عليم بمكرهم، فكان مكره بهم من أحسن وأعدل الجزاء لهم أن كشف ما يبيّتون فانتقم منهم. فهذه الصِّفة هنا من باب كمال صفاته العلى. ولا تأتي هذه الصِّفة في حقِّ الله مطلقة بل تكون مقيّدة من باب الجزاء مقابل أفعال الماكرين من البشر.

4. خاتمة :

المنارة للاستشارات

ليس هذا البحث سوى إطلالةً سريعة على موضوع البيان القرآني وكيفية تناوُلِه عند البلاغيين القدامى، ومدى الاستعصاء والانغلاق الذي واجهته البلاغة العربية كمنهج قرائي في فهم القرآن الكريم. فقد قدَّمنا بعض الأمثلة عن الفنون البلاغية التي كان البلاغيون يتعسَّفون في تخريج الصوَّر البيانية القرآنية على منوالها.

أمّا الآن فقد ظهرت بلاغات خاصّة لكلِّ جنس من أجناس الخطاب غير البلاغة العامّة القديمة التي كانت تُهيْمن على كلِّ الخطابات. فنظرية البلاغات الخاصة يرى أصحابها بضرورة قراءة كلِّ خطاب بالبلاغة التي تناسبه ولا تُفرَض عليه قراءات ليس هو بمزاولها. فالرواية المعاصرة لها بلاغتها الخاصّة بها، وكذلك القصة والأقصوصة، والسيرة...إلخ

لذا يجب على الباحث المعاصر أن يستفيد من الأطروحات التي تقدِّمها هذه النظريات؛ باستثمارها في إبداع بلاغة قرآنية خاصّة تفي الخطاب القرآني حقّه، ولا تزجُّ به في متاهات التأويل التي تترلق وراء المذهبية إذ لا تراعي قداسة العقيدة الإسلامية، ولا تراعي قدسية الكتاب العزيز. والله –تعالى–أعلم.

5. قائمة الإحالات:

[1] مثل الرماني والباقلاني والخطابي والقاضي عبد الجبار، لكن شوقي ضيف أوردهم ضمن المتكلمين لغلبة المذهب عليهم. ينظر البلاغة العربية تطور وتاريخ ص 102

[2] مشبال محمد، البلاغة ومقولة الجنس الأدبي/ مجلة عالم الفكر ع1 1يوليو 2001

[3] الجرجاني عبدالقاهر دلائل الإعجاز دار المدني (بجدّة والقاهرة) تح محمود محمد شاكر ط3/ 1413هـ ص26

[4] المرجع نفسه ص8

[5] محمد مشبال، مصطفى ناصف والبحث عن الملاءمة بين البلاغة والأدب. موقع د محمد مشبال يوم 2017/02/22م

[6] محمد مشبال ، " البلاغة ومقولة الجنس الأدبي "

[7] ينظر أبو عبيدة، مقدمة مجاز القرآن، مكتبة الخانجي ط1381هـ ص8

[8] أحمد يوسف مقال بنية الخطاب البلاغي وسلطة النص الغائب (القراءة بالمماثلة) مج دراسات سيميائية لسانية أدبية ع7 ديسمبر 1992/ المغرب

[9] المرجع نفسه

[10] علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، دار المعارف مصر، ط3 ص75

[11] المرجع نفسه ص87.

[12] المرجع نفسه ص105.

[13] الطاهر أحمد مكي، من بلاغة القرآن، مقال نشر في مج الرسالة ع915 سنة1951م

المنارة للاستشارات

[14] ينظر المبحوت شكري، الاستدلال البلاغي، الكتاب الجديد المتحدة ط2010/2/ص125

[15] ينظر المرجع نفسه

[16] ينظر المرجع نفسه

[17] مشبال محمد، البلاغة ومقولة الجنس الأدبي نشر بمجلة عالم الفكر ع1 2001 وموجود أيضا على موقعه.

[18] درويش أحمد، النص البلاغي بين التراث العربي والأوروبي، دار غريب 1998 /ص14

[19] المرجع نفسه

[20] محمد مشبال البلاغة بين التخييل والتداول. مجلة العبارة ع/1 /1أوت 2006

[21] هذا الكتاب صدر في 2005 عن دار إفريقيا الشرق.

[22] محمد مشبال مقال البلاغة بين التخييل والتداول.

[23] القصاب وليد، التراث القدي والبلاغي عند المعتزلة حتى نهاية القرن السادس، درا الثقافة الدوحة ص342/341

[24] الزمخشري، أساس البلاغة، (مادة خ ل ق) ، دار الكتب العلمية ط1 ص264

[25] ابن منظور، لسان العرب، (خلق) دار صادرط3 ج 10 ص85.

[26] نفسه ص268.

[27] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح ابراهيم شمس الدين / دار الكتب العلمية ص75

[28] العلوي، الطراز، ج3 / ص6/5

[29] العلوي، الطراز لأسرار البلاغة، المكتبة العنصرية بيروت، ط1/ ص121

[30] الصعيدي عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ط17 ج3/ص538

[31] الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح تح عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ط2 بيروت 2009. ص79

[32] ينظر يوسف بن عبد الله بن محمد العليوي، التوجيه البلاغي لآيات العقيدة – رسالة ماجستير–جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص 536

المنارة للاستشارات